منديل وداع من مسافر ...

بقلم مجاهد عبد المنعم مجاهد

المجتمع الثقافي الراهن اصبح كريها للغاية (*):

ناقد من اعظم نقاد البلد كنا نتتلمذ على كتبه التي اصدرها في سنوات الحرب يتحول الى صحفي تافه يجري وراء الجنيهات كما يجري اي شخص دنيوي ويتخلى عن قلمه ورسالته .. فاذا سألته باسم من يفعل هذا ، لقال : هي لقمة العيش .. ولقمة العيش عنده تساوي ٣٠٠ جنيه شهريا كأن ليس مما يشرفه ان يشتغل ماسح احذية لو اقتضى الامر وظل محتفظا بمستواه النقدي القديم !..

وادباء شبان .. اعتقدوا هم الاخرون انهم وصلوا ، وعادوا يلفون ويدورون في فلك ما قرأوه في مجلة « علم النفس » و « الكتاب » و « الكاتب المصري » كأنما هذه المجلات وحدها يمكن ان تصنع ثقافة !!..

ومعاركنا الادبية فقدت فعاليتها منذ خمس سنوات كلة ، واصبحت احادية الجانب .. وصارت المعركة في ناحية واحدة ، ومن هنا صارت المعركة اما لغوية او عروضية او شيئا من هذا القبيل ..

وادباء يوضعون عند الالهة ، لا لشيء الا لانه وضع في عمله الفني تموز وعشتار والسندباد ، فظن انه بهذا اتى بالمعجزات وانه انسان مثقف للغاية، افلا يفعل كما يفعل اليوت ؟ مع ان اولى مبادىء الفن المستقراة عبر التاريخ ترفض اعتبار هذه الاعمال فنا وان كانت تحتوي على بعض الصور الجزئية الفنية ..!

وادباء اخرون ... تقام لهم سرا دقات التهنئة لا لشيء ، الا لانهم يتحدثون عن المعركة وفلسطين والجزائر ... مع انهم يكونون قد كتبوا عن جميلة تحت تأثير ثلاث زجاجات من البيرة ، ويتبدى ان ما يقولونه كذب وهراء اللصوص الادباء..!

ادباء يدافعون عن شرف الانسان وكرامته ، بينما يكونون هم في عملهم قد احتلوا مناصبهم عن طريق فعلة لا اخلاقية على حساب اصدقائهم ، مثلا .. يبدأون بموقف ايديولوجي ثم يخونونه ، ثم تمجد هذه الخيانة .. ومن هنا تكون حياتهم هي الصادقة وادبهم هو الزائف ، ويعلنون انهم اصحاب الكلمة !!

أدباء يعبرون عن احزان المدينة وضيعة الجيل فيها.. ثم يحتلون مراكزهم التي تمنحهم مرتبات تساعدهم على الجلوس في « جروبي » و « هيلتون » .. ويتطلعون تطلع اللامبالاة لجيلهم الذي انجبهم !..

واساتذة جامعيون يكتبون ما يعتقدون أنه نقد وهم جلوس على مقاهيهم ، يرمون النرد باليسرى ، ويخطون كلمة نقدية باليمنى والنرجيلة في فمهم ، ثم يقدمون ما يكتبون : هذا هو من تعب الليالي!!

ادباء يكتبون عن كرامة الانسان وعن جيل القدر في غموض مابعده غموض .. فاذا سألتهم ماهذا أجابوا : انه البعد الرابع !! ويبكي القارىء المسكين في بيته فقد اوهمه المؤلف بانه جاهل !!

ونقاد يتشدقون بمصطلحات غريبة كالمعادل الموضوعي دون ان يفهموا ثقافة بلدهم هم ، ولو كان الامر هكذا لهان فهم ينقلون هذه المصطلحات دون حتى ان يفهموها ..

وشاعر باسم الشعر والنقد تراه يكتب في السياسة كلاما عاطفيا للغاية وينشر له مايكتب من سطحية ، نتيجة لاسمه الضخم ويستند الى اسطورة تشيع عنه انه في غاية الثقافة والمعرفة !

ومعلقون واصحاب سياحات تذوقية وملخصون : ينظر اليهم على انهم نقاد .. وانهم ينوءون بما يحملون من الثقافات .. وان لم يكن وراءهم رصيد الا رصيد التذوق، وياله من رصيد بدائي !!

هذا هو بعض مايخيم في اوساطنا الثقافية ، واشد منه ان يتمسح المعلق الذي يدعي نقدا بالجهل ، ويصبح الجهل علما واسعا .. فترى احدهم مثلا يقسم الرمز ... فيصبح الرمز العربي ـ لانه عربي فقط ـ رمزا متقدما ، والرمز الغربي رمزا رجعيا ، وبهذا تستحيل عيون الزرا الرامزة السلام عيونا مدمرة ، ويصبح غراب محمود حسن اسماعيل بلبلا صداحا بالسلام ! مادام كل منهما قد دخل

(*)... انا اعلم انه شيء حزين بالنسبة لي على الاقل الا اواصل الكتابة وخاصة انها صارت شيئا في الدم .. سبعة اشهر مضت امرن نفسي على الامتناع .. وفي خاتمة هذه الفترة اراني مدفوعا بحبي لقراء « الاداب » الى كتابة هذه الكلمة ، اخر ما اكتبه .. ويؤسفني ان الكلمة لم تنشر في عدد يوليو بسبب البريد .. فقد قررت مع هذا الشهر بدء مشروعي الجديد في القراءة والكتابة ، محاولا ان اربط كلماتي بالناس البسطاء لا بتلك الطبقة المعقدة التي تسمى طبقة المثقفين..

في منطقة النفوذ !!

انهم معلقون كل اعتمادهم في موضوع ضخم كهذا كتاب واحد لانطون غطاس فهم بسطحية ..!!

هذا هو صنف المعلقين الذي اصبح شائعا على انهم نقاد .. فيصبح الفولكلور عندهم خاليا من الرمز مع ندره وجود موال واحد بلا رموز .. وهم يقولون بان هناك صورة فولكلورية وتخشى ان تقول لهم : يوناني فلا يقرا فيذكرونك بابي تمام ، وانهم يأتون بما لم يأت به الاوائل .!

ولانهم عرفوا ان الرمز لابد ان يكون اما في الكلمة واما في الصورة واما في الفكرة ، وان الثلج يساوي الطهر مثلا ويستحيل الرمز الى معادلة رياضية ، فاذا وجدوا شيئا جديدا لايخضع لهذا ولا لذاك لسارعوا بان هذا الموضوع موضوع عادي عن الحزن مثلا ، وفقدت الدلالة الاجتماعية للمضمون الرامز ككل لانه شيء ليست له سابقة .. وبأسم ماليس له سابقة ايضا يصبح كل اطارهم المنطقي « اما ... او » ، اما عربي . واما عامي .. وبالطبع اذا ند العمل الفني عن هذا اعتبر لاشيء .. بدل ان يعدل المعلق من أطره .. واصبح الموضوع عاديا ، ومسروقا من فلان .. مع ان هذا الفلان يعلن في مقدمة عمله مضمونا مختلفا حتى عن المضمون الثاني بتلخيص المعلق نفسه !

انهم معلقون غاية في الروعة ، يوهمونك بالعلمانية الشديدة .. فيقولون لك : هنا خطأ عروضي ، هنا فعل ليس متعديا ، وهنا لاتوجد قافية .. ويجهدون انفسهم ـ كأن الامر محتاج الى الجهد ـ لكي يكتشفوا ان هذا الموسيقار مثلا تافه ، مع ان الكل يعلم بمثل هذه التفاهة .. ويصفقون لاكتشافهم الذي فاق اكتشاف امريكا ..! وتزداد علمانيتهم عندما يوهمون القارىء انهم قاموا ببحث اجتماعي احصائي شامل لكل القطاعات الثقافية في الوطن العربي وانتهوا الى النتيجة الباهرة : ان الذوق يرفض شعركم ! مستندين الى ذوقهم هم وكأن ذوقهم هو كل الاذواق ، وكأن ذوقهم هو خير الاذواق ، وكأن مهمة الفنان ان يخضع للذوق السائد بدل ان يطوره ..! لقد كان جاليليو على خطأ وكل معاصريه على صواب .. وعندما ثبت رأي جاليليو تهاوى الاخرون ولم يعد التاريخ يعي اسماءهم ..

انهم معلقون رائعون حقا .. ولكي يثبتوا انهم نقاد ترى واحدا منهم مثلا يدعي الحصول على شهادات عليا وماجستيرات .. كأن النقد يحتاج الى شهادات !!

لقد استحالت جلسات ادبائنا الجماعية في المقاهي دردشات وفكاهات وقفشات ومجاملات ، ويصبح التعليق الصحفي على الكتب كهذه الجلسات ..

وهكذا استحال مجتمعنا الثقافي :

انه وسط بلا اخلاص ، بلا اخلاق ، بلا ثقافة ، بلا ثبات على المبادىء ، بلا ولوج من ثقب الابرة .. وسط ضد الاكاديمية بحجة التبسيط ، وسط يستعجل الشهرة .. يأتي الواحد منهم من القرية لايعرف القراءة ، ويصبح بعد سنتين عن طريق الوصوليات الاديب الذي تسير به الركبان ..

فماذا نفعل وسط هذا الوضع الثقافي الخانق ؟

ان الساحه تفتح صدرها للفراد والسطحي والتافه والنائم على ضميره والحاوي الطروب .. فليرقص هؤلاء على تصفيق بعض الساذجين .. لكن الجماهير الواعية سوف تصحو وستمسك هؤلاء المهرجين من اقفيتهم وستقودهم الى ساحة ليس فيها ، الا جليد النسيان ..

ان لنا اختا صغيرة لم يظهر لها نهود ، فماذا نفعل لاختنا حين تخطب ؟ وماذا نفعل نحن وسط هذا الوضع الثقافي الخانق ؟ أفلا يجب ان نترك التافهين وراء حائطنا ، يرنون للموتى باعجاب ؟!

اما بالنسبة لي ، فقد قررت العودة الى النبع الحالم .. الى الغرف الدفينة في النفس .. حتى لانصبح ترسا في الالة .. ولكي نطرد الشيطان ـ الجهالة ـ من الارض ، لابد من التسلح بثقافة موسوعية شاملة في شتى المجالات .. ولننتج على اسس علمية في مختلف فروع المعرفة البشرية .. ولهذا قررت التوقف ـ على الاقل ـ عشر سنوات كاملات من اجل هذا .. ولن نضعف ـ كما فعل بعض الاخرين ـ لاننا مصممون على اننا لو اعطينا ، لاعطينا شيئا لجيلنا يستحق ان يسمى عطاء .. وعند المعاودة ، ياويل كل من كان يرقص في الساحة ، وياويل كل متسلق ونبات طفل بلا جذور !!

فوداعا ياقراء الاداب الاعزاء .. يامن اودعهم وحزن الصمت المؤقت يملأ عيني .. ووداعا ياصديقي سهيل .. ووداعا لهذه القلة القليلة من الاصدقاء الادباء الجادين الذين لم يفصلوا الاخلاق عن العلم ، ولم يفصلوا علمهم عن حياتهم .. اليهم جميعا اقول لهم الان :

وداعا الى لقاء !!

القاهرة — مجاهد عبد المنعم مجاهد

دراسات ادبية

من منشورات دار الاداب

قضايا جديدة في ادبنا الحديث	للدكتور محمد مندور
في أزمة الثقافة المصرية	لرجاء النقاش
نزار قباني شاعرا وانسانا	لمحيي الدين صبحي